حبيب زيّات

١٨٧١ - ١٩٥٤

بقلم الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي

هو ذلك العالم الواسع الاطلاع المولع بالتنقيب والبحث ولم ينشر يوماً مقالاً مبتذلاً بل كان يدأب دائماً وراء مخطوطات العهد العباسي الذي كان يحبه عساه ان يجد فيه المادة التي تشبع روحه المتعطشة الى الحقيقة وعساه ان يستنبح الفرصة ليضبط اقوالاً تناقلها مؤرخو الادب بدون تحقيق اعتبروها صحيحة. ولم يكن هذا الرجل العلّامة يرتضي بان يردّد اقوال الذين سبقوه بل كان يعتبر ان مجال التنقيب ما برح فسيحاً وان ثمة حقولاً ، وان نقبوا فيها مرات عديدة، ما زالت تشتمل على امور جمّة تقتضي المنقّب الحقيقي طوال اناة وصبر وجلد.

ولقد عاشرت حبيب زيات واطلعت عن كثب على طويّته وذلك منذ سنة ١٩٤٦ وتمكنت ان اميّز في عقله المتعطش الى المعرفة ، في عقله الثاقب ، حبّ الاستطلاع وتحرّي الحقيقة التي لم يحترم سواها .

وحبيب زيات كان يضمر في قرارة نفسه حبّاً للناس اما اذا اقتضاه الامر للدفاع عن الحقيقة فلم يكن حبه لهم يثنيه عن البوح بها . وانني لا ازال اذكر يوماً كان يعدّها وما كان يعتريه من مخض اذا كان مضطراً للجهر ببعض الحقائق، فقد كنت احسّ ان في صدره قوّة تسوقه الى التصريح بها وان جرحت مؤلف الكتاب . وما قامت شهرته الا على حكمه الصائب وثقافته الواسعة وتضلعه من اقوال الادباء القدماء. ممّا كان يحمل الجميع على ان يعلّقوا اهمية كبرى على نقده .

والذي ينبغي لنا ان لا ننساه هو ان حبيب زيات قد بدأ حياته في التجارة ولم يستطع ان يتنبّا في اوضاع ربّما اقتضته ان يتسامح مع ضميره. ففضل اتخاذ الكتب اصدقاء له والفراغ الى التحدّث اليها باطول الاحاديث واشدّها جدوى على غرار الجاحظ ، فالكتاب صادق ولا ينتفض ، عند النقد ، انتفاض الانانية الجريحة العنيف ، وبالاستطاعة تقليب صفحاته بدون ان يعارضك معارض ،

ولذلك من المستحسن ان تعقد معه اواصر الصداقة . فجال في مدن اوروبا زائرًا مكاتبها مقلبًا مخطوطاتها وقاطفًا منها ما يروق ذوقه الصحيح والدروس التي وقف لها حياته فكان ينتقل من باريس الى ليدن الى الفاتيكان الى مدريد فالاسكوريال فلندرة الى غيرها من المكاتب الكبرى التي كان ينوي زيارتها للمرة الثانية او الثالثة ثلاثة اشهر قبل موته[1] . وكان يؤكد لي في تشرين الاول الماضي ان في نيته التنقل في مكاتب باريس وليدن والبريتش موزيوم للوقوف على بعض المصادر لدراسات مقبلة .

o

ولقد قلت ان حبيب زيات كان يحاول التعمق في تاريخ العهد العباسي وخاصة ان يتلخص الحقيقة فيما يتعلق بمسيحيي الشرق من جميع ما كانت تشتمل عليه تلك المخطوطات من وجهات نظر تستوجب الالتفات اليها ولم تُكتشف بعد . وكانت ادق التفاصيل تحتل مقامًا هامًا في نظره لان عهدًا لا يبعث حيًا في احداثه الجسام التي امتاز بها فحسب ، وانما يستمد غالبًا طابعه الخاص من احداثه الصغيرة . ألم يضع احد كبار المؤرخين الفرنسيس ، لنوتر (Lenôtre) ، سلسلة كتب عنون لها بكاملها « التاريخ الصغير في خدمة التاريخ الكبير » . ولئن قلت ان حبيب زيات كان يهتم لكل شاردة وواردة فلا يعني ذلك انه كان يهتم للتفاصيل فقط ويجعلها محلًا ممتازًا ويهمل الاحداث العظيمة .

ولا يستطيع من يتصفح « الخزانة الشرقية » الا ان يتحقق غزارة تفاصيله وفكراته الكبرى في شتى مقالاته في هذه المجموعة المشتملة على دراسات عديدة في موضوعات مختلفة .

وكان حبيب زيات يرتاح الى نشر مقالاته في المشرق ومجلة الشرق الادنى المسيحي ولاسيما مجلة المشرق التي كان يحبها ويحب ان يدعوها مجلته ، وكان يحب ان يذهب بمقالاته لمقابلة جميع المستشرقين في انائي اقطار المعمور ليطلعهم على شؤون يجهلونها .

ولئن اطلعنا على مجموعة الخزانة الشرقية وغيرها من كتاباته كخزائن

١) راجع مقال السيد حبيب سيوفي ، المشرق ، آذار ١٩٥٦ ، ٢١٦

الكتب في دمشق وصواحبها ، والعطيب في الاسلام ، وادبار دمشق وبرّها في الاسلام ، والديارات النصرانية في الاسلام ، وسمات النصارى واليهود في الاسلام ، وخبايا الزوايا في تاريخ صيدنايا ، والمكيون في الاسلام لتولتنا الدهشة من شدة دقة ملاحظته وغزارة علمه ولا سيما دقته الوجدانية اذا ما تعرّض للتمحيص في قراءة ما يشك فيها ، فيأخذ بتلابيبها ليرفضها او يسلم بصحتها .

*

لقد ذهبت يوماً لأراه في دمشق واتفقت معه على طبع مخطوط كبير الاهمية . فذهبنا معاً الى المكتبة الظاهرية ومكثنا هناك . اما هو فطفق يعمل واما انا فاخذت اقلب المخطوطة التي استحسنتها . بيد ان وفرة الاسناد فيها ، اذا ما طبعت طبعاً حديثاً ، تفضي الى الملل . فلم يرضَ بحذفه او بتره وطالب بالابقاء على الاسناد جميعه . واذ عدنا الى داره واستأنفت الحديث معه بالامر ضرب لي مثل احد اصدقائه الذي نشر مخطوطاً وبذل فيه لسوء الحظ كلمة على اعتقاد منه انه احسن في صنعه فما كان منه الا انبه تأنيباً مريراً .

وما هاتان الحادثتان الا مثلاً صغيراً من اعماله الكثيرة التي تدل جميعها على صفاء عقله وصدق علمه .

اما التنظيم فقد كان رائده في حياته الشخصية وفي مكتبته ليدل دلالة صريحة على سيطرته على نفسه سيطرة كاملة وعلى صيانة نظره وبعده في العمل .

ولشدّ ما زرته بمنزله في نيس وتحدثنا معاً عن مصنفاته التي كان مزمعاً ان ينشرها او عن شروح كان له ان يزيدها في دراسات عتيدة . فكان ينهض بكل سهولة نحو ادراج طاولته الفاصة بكل ضروب العلوم المكدّس بعضها فوق بعض منذ سنين عديدة او الى خزانة كتبه ويتناول منها مصنفاً مطبوعاً او مخطوطاً ويفتحه بيد مرنة في الصفحة التي كنا نتحدث عنها .

وما على القارئ الا ان يطّلع قليلاً الى خطّه المستقيم المنتسق والذي ظل كذلك حتى اخر ايامه . وما هي الا بضعة ايام بعد ان غادرته في شهر تشرين الاول الماضي حتى بعث اليّ برسالة لم يكن خطه فيها يختلف عما كان يكتبه قبل ذلك لسنين عديدة .

ولماذا لا نتحدث عن انشاء حبيب زيات . والانشاء هو صورة عن الانسان. لقد كانت لغته صافية وخالية من الشوايب ، وكلماته منتقاة وعبارته سيالة جزلة واضحة لانه كان متمكناً من مفرداته ليعرب عما يريد الاعراب عنه بدون زيادة او نقصان وبدون تشويش وحذلقة .

فمن قائل يقول : كل هذا تفاصيل وهنات !... فما اكثر الذين يعدون انفسهم سعداء اذا تميزوا بمثل هذه « الهنات » ليتركوا للخلق ما يحاكي تلك الاستقامة والدأب في العمل والنظر الثاقب والتعلق بالحقيقة على شاكلته . ان حبيب زيات سيترك بعده الذكرى .

=

لم يغب عن نظر ذلك الرجل الذي سبر غور العهد الذي درسه والبحوث التي دأب في متابعتها الامر الجوهري لانه لم يتفق الي قط ان صحبته مرة الا وحدثني عن القضية الدينية . ولقد احببت فيه تعلقه البنوي بامنا الكنيسة الكاثوليكية الشاملة المقدسة تعلقاً خالياً من التباهي والتصنع . فحبه لها كان حب ابن كريم صادق ويشجبه احياناً بعض الظاهرات الخارجية لامه الكنيسة بيد ان ذلك الحب كان مطرد النمو وحرًا .

واذا انضجته آلام سنيه الاخيرة ادرك حبيب زيات سر هذه الآلام التي تشهد ولادتنا وتصحبنا في شتى تقلبات حياتنا ولا تغيب ابداً عن افراحنا وشدائدنا ، فهي تصحبنا بين ذراعي الاب السرمدي لنقدم له وقائنا كعربون عن تعلقنا به ولنشفع بنا لديه .

وحبيب زيات كان ابناً للكنيسة مطيعاً . اما ما استطاع ان يكتشفه فيها من ضعف بشري فلم يثنه قط عن التعلق بها وسماعه لها واتحاده اتحاداً كاملاً بها . فانها كانت في نظره الام الحنون . وكفى .

وفي شهر تشرين الاول الماضي حدثني عن ذلك والدموع في عينيه فانه كان يشعر بدنو الاجل ... لا بل كان ، كما قدمنا ، يروم الذهاب الى الاسكوريال وكمبريدج وليدن وغيرها من المكاتب ... وما كان يفكر ان المنية ستعاجله بمثل تلك السرعة مع انه كان يعرف ان الانسان لا يستطيع البقاء الى الابد على هذه الارض فخف سيره للاقاة ربه الاخيرة الدائمة .

وهكذا كان شاعلا فكر حبيب زيات اولاً انه ما برح عليه ان ينجز في حياته اعمالاً اخرى وثانياً ان من واجبه ان يستعد استعداداً لكل لهذا اللقاء الاخير .

كان حبيب زيات عاملاً صالحاً في ميدان العلم وعاملاً صادقاً في سبيل الحقيقة التي تقول له بدون ريب : تعال ايها الخادم الامين فقد اخذت خمس وزنات واشتغلت فربحت خمساً اخر فادخل ملكوت سيدك .

وحبيب زيات سيبقى في نظرنا الرجل العالم الذي عرف ان يخدم ربه بوجدان مستقيم والعلم بوجدان لا يقل عن ذلك استقامة واخلاصاً .

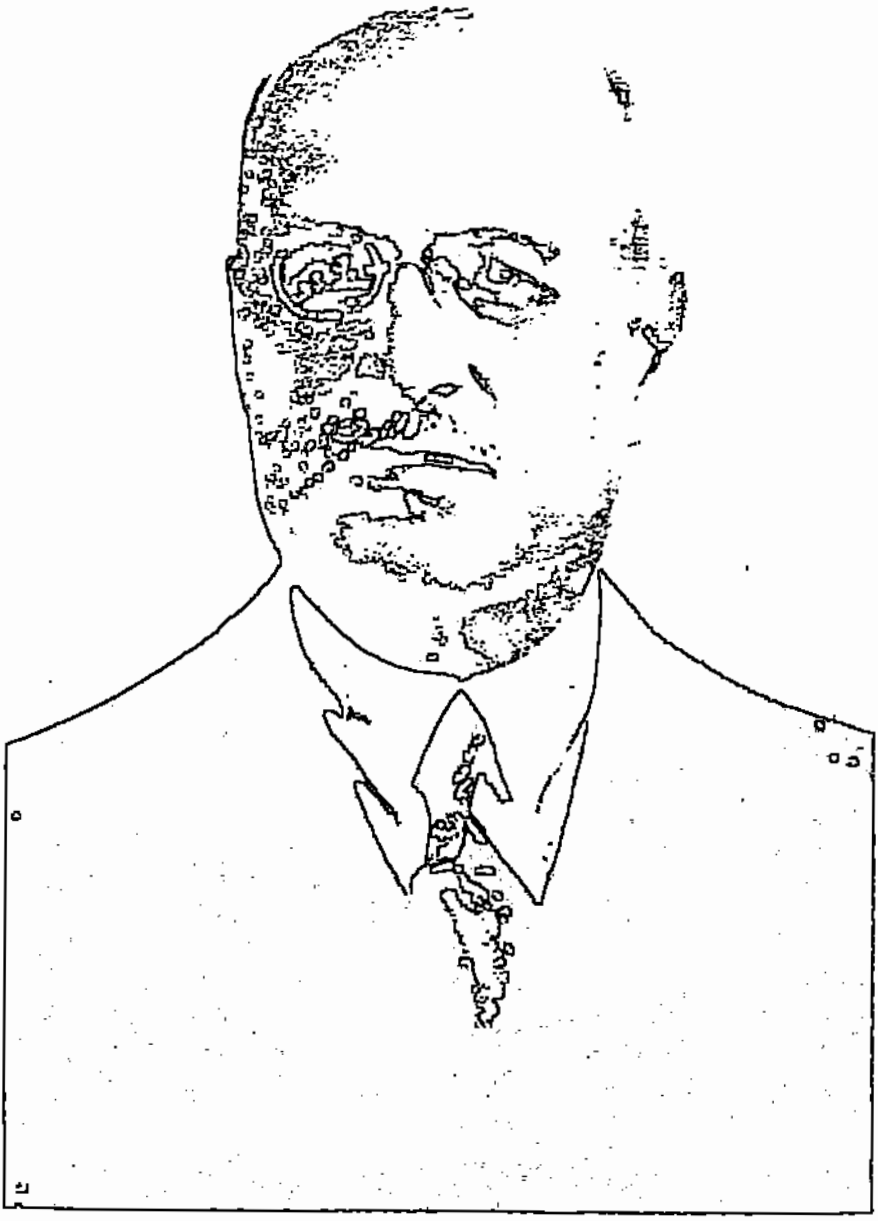

حبيب زيات

١٨٧١ – ١٩٥٤